فن السيرة في الفكر اليوناني
أفلاطون وبلوتارخوس نموذجاً

د. مصطفى النشار(*)

أولاً: الأصل الاشتقاقي للسير

من المعروف أن كلمة البيوجرافي Biographie كلمة يونانية من شقين bio وتعني حياة وgraphie وتعني كتابة ومعناها كتابة الحياة. وكان أول من استخدمها من اليونانيين المؤرخ الشهير بلوتارخوس الذي عاش فيما بين منتصف القرن الأول الميلادي والقرن الثاني الميلادي وتقريباً فيما عامي (٤٦-١٢٠م).

وقد استخدمت للدلالة على ترجمة سيرة شخص ما يقوم بها كاتب استناداً إلى وثائق مكتوبة وإلى روايات شفهية وخاصة المقابلات التي تتم مع الأصدقاء والأقارب ومع كل من عايشوه أو رافقوه ردحا من الزمن(١).

ثانيا: بين السيرة الذاتية والسيرة الغيرية

ويمكن التمييز بين نوعين من روايات سير الحياة؛ فهناك السيرة الذاتية التي يكتبها الشخص نفسه عن نفسه، وهناك السيرة الذاتية الغيرية التي يكتبها أي كاتب عن أي شخص آخر من العظماء أو المشاهير.

وبالطبع فإن الأقدم في الظهور هو السيرة الغيرية أو البيوجرافيا؛ فهي قديمة قدم الحضارة المصرية القديمة، حيث دون قدماء المصريين على أحجار المعابد والمقابر والأهرامات تراجم

(*) أستاذ ورئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

(١) خالد فؤاد طحطح، السيرة لعبة الكتابة، مطبوعات المجلة العربية، بالمملكة العربية السعودية الرياض (١٩٢)، ١٤٣٣هـ، ص٧.

عديدة لعظمائهم من القادة والملوك[١]. وهكذا الحال في كل الحضارات الشرقية القديمة حيث سجلوا إنجازاتهم و إنجازات عظمائهم على الحجر.

ثالثًا: صور من السير في الحضارة اليونانية

إذا انتقلنا من الحضارة المصرية القديمة باعتبارها مثلاً على الحضارات الشرقية القديمة، إلى الحضارة اليونانية سنجد أنها حفلت بالسير الحياتية بنوعيها الذاتية والغيرية. ولعل أقدم السير في الفكر اليوناني هي ملحمتي الإلياذة والأوذيسة اللتين كتبهما شعرا هوميروس، حيث سرد في الإلياذة تفاصيل وافية لوقائع الخصام بين زعيمين كانا حليفين في الحرب وما أنتجه خصامهما هذا من كوارث لأصدقائهما وقد قدمت الإلياذة المثل من هؤلاء العظماء وهم يعملون ليتعلم الناس ما هو شريف وما هو شائن وما هو لائق وما هو غير لائق[٢]. أما في الأوذيسة التي وصف فيها رحلات أوذيس (أو عوليس) ملك إيثاكة، تلك الرحلات التي دامت عشر سنوات واكتنفتها الأخطار والمشاق في طريق رجوعه إلى بلاده بعد سقوط طرواده وأوذيس في الأساطير الإغريقية هو ابن ليرث وأمه انتكليا وكان ملكاً لإيثاكة وبطل مشهور يصح أن يعد - كما قدمه هوميروس - ممثلا لخصائص الشعب الإغريقي وقد خلده هوميروس وقدمه على أنه خير أبطال الإغريق وأشجعهم والحبيب المفضل عند الإلهة آثينا[٣].

وبالطبع فغني عن البيان أن ما قدمه هوميروس في هاتين الملحمتين امتزج فيه التاريخ بالأسطورة، والحقيقة بالخيال وربما يكون ما فيهما من أسطورة وخيال أكثر مما فيهما من الواقع والتاريخ وهكذا كانت ضرورات الشعر وكذلك ضرورة تمجيد الأسلاف والأبطال لدرجة التألية كما درج على ذلك اليونانيون منذ فجر تاريخهم.

وإذا كانت قصائد هوميروس لم تكن سيراً تاريخية بقدر ما كانت أسطورية خيالية، فإن ما كتبه أكسينوفون Xenophon الذي عاش فيما بين عامي (٤٣٠-٣٥٤ق.م) في كتابه المذكرات

---

(١) اندري موروا: فن التراجم والسير الذاتية، ترجمة د./ أحمد درويش، منشورات المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ١٩٩٩/ ص٥.

(٢) انظر مقدمة الترجمة العربية للإلياذة التي قامت بها عنبره سلام الخالدي، نشرة دار العلم للملايين ببيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧، ص٩-١٠.

(٣) انظر مقدمة الترجمة العربية للأوذيسة التي قامت بها عنبرة سلام الخالدي، نشرة دار العلم للملايين ببيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧، ص٥-٦.

memorabilia عن سقراط حياته وذكرياته معه، وفيما كتبه عن سيرة حياة أجيزيلاوس القائد الأسبرطي الشهير فيما بين عامي (٤٤٤-٣٦٠ق.م.) يعدان بحق من أهم المؤلفات التي تنتمي لجنس السير الغيرية في التراث الحضاري لليونان[١].

وكذلك فإن ما كتبه ديوجين اللائرتي الذي عاش على الأرجح في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي في كتابه «حياة مشاهير الفلاسفة» عن حياة الفلاسفة وأعمالهم ونظرياتهم الفلسفية[٢] يعد بالإضافة إلى عمل بلوتاخورس في كتابه الشهير عن «السير المتوازية لعظماء اليوناني والرومان»[٣] من أعمال السير الغيرية الأكثر نضجاً والأكثر تأثيراً.

كما أن ما كتبه فورفريوس الشهير بفورفريوس الصوري عن حياة أستاذه أفلوطين يعد من الأمثلة الشهيرة في تاريخ الفكر القديم على السيرة الغيرية، حيث روى فورفريوس كل ما عرفناه من خلاله عن حياة أفلوطين وكتاباته.[٤]

وواضح من كل ذلك أن لدينا تراثاً يونانياً غزيراً فيما يتعلق بالسير الغيرية سواء كتبها مؤرخون أو شعراء أو فلاسفة عن آخرين سواء كانوا من العظماء والأبطال ورجال الدولة والقانون أو من عظماء الفلاسفة وأعلام الفلسفة اليونانية. وعلى الجانب الآخر فالتراث اليوناني يكاد لم يعرف النوع الآخر من السير الذاتية، إذ ليس لدينا إلا مثالين واضحين على ذلك هما ما كتبه أفلاطون في «الرسالة السابعة» حيث روي لنا جانبا مهما من حياته[٥]. أما المثال الآخر فهو ما كتبه ماركوس أوريليوس الفيلسوف الرواقي الشهير الذي عاش فيما بين عامي (١٢١-١٨٠م) والذي حكم الإمبراطورية الرومانية بين عامي (١٦١-١٨٠م) في كتابه الشهير «التأملات»

---

(١) انظر: Anderson (J. K):Xenophon, Duckwort, 1974.
وأيضاً: Water Field (R.): Xenophon.conversations Of Socrates, London, Penguin Books 1990.

(٢) انظر: ديوجين اللائرتي: حياة مشاهير الفلاسفة، ترجمة د/ إمام عبدالفتاح إمام ومراجعة د/ محمد حمدي إبراهيم، نشرة المجلس الأعلى للثقافة ضمن المشروع القومي للترجمة، (١٠٣٣) الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٠٦م.

(٣) انظر، بلوطرخوس: العظماء - عظماء اليونان والرومان والموازنة بينهم، الترجمة العربية لميخائيل بشارة داود، دار العصور للطبع والنشر بمصر، ١٩٢٨م.

(٤) انظر: Porphyry: On The Life Of Plotinus, The Loeb Classical Library, London, 1966.

(٥) انظر: أفلاطون: الخطاب السابع، نقله إلى العربية د. عبدالغفار مكاوي ضمن كتابه: المنقذ - قراءة لقلب أفلاطون، نشرة دار الهلال بالقاهرة، ١٩٨٧م.

Meditationes وخاصة في الكتاب الأول منه حيث حدثنا عن أهله (جده وأبيه وأمه) ومعلميه والكثير من معاصريه وما تعلمه منهم جميعاً ولا شك أن ذلك يعد مقتطفات من سيرته الذاتية[١]، أو ربما تكون باصطلاح آخر أقرب إلى ما يسمى الآن بالترجمة الذاتية؛ حيث يميز البعض بين السيرة الذاتية والترجمة الذاتية؛ إذ تستخدم الأولى للتعبير عن تواريخ الحياة المسهبة وتستخدم الثانية للتعبير عن تقديم سيرة مختصرة أو موجزة لحياة الفرد. وتعد كلمة السيرة أقدم استعمالاً من كلمة الترجمة في تراثنا العربي من حيث مدلولها في تتبع حياة شخص من الأشخاص بينما يرجع استخدام كلمة ترجمة إلى ياقوت الحموي الذي عاش فيما بين عامي (١١٧٨-١٢٢٥م) في كتابه «معجم البلدان» منذ أوائل القرن السابع الهجري وقصد بها حياة الشخص وشيئاً فشيئاً بدأ يغلب على الاصطلاح استعمالها لتدل على تاريخ الحياة الموجزة للفرد[٢].

وعلى كل حال فإن دراستنا لنوعي السير الذاتية والغيرية سيقتصر في هذه العجالة على عرض نموذجين فقط منهما؛ إحداهما هي الرسالة السابعة لأفلاطون كنموذج للسيرة الذاتية التي كتبها صاحبها ليسجل فيها بعض أحداث من حياته الشخصية المرتبطة بتطورات مهمة في فكره الفلسفي. والثانية هي كتاب السير المتوازية vies parallele لبلوتارخوس وهو ما فضل المترجم العربي نقله إلى العربية تحت عنوان «العظماء - عظماء اليونان والرومان والموازنة بينهم» الذي يقدم فيه بلوتارخوس عرضا متوازيا لأحد عظماء اليونان وأحد عظماء الرومان مقارناً بين حياتهما وخصائصها الأخلاقية وخصالهما الشخصية وما أحدثاه من تطور في عصرها.

رابعاً: الرسالة السابعة والسيرة الذاتية لأفلاطون

لم يسبق أفلاطون فيما أعلم أي إنسان في كتابة سيرته الذاتية أو جانباً منها على النحو الذي وجدناه عنده في الرسالة السابعة، حيث لم يكن يهتم السابقون بكتابه أو رواية أحداث تمس حياتهم الشخصية من قريب أو من بعيد. لكن أفلاطون أضطر إلى ذلك وربما بطريق المصادفة حيث حينما مات صديقه ديون وطالبه أقاربه وأصدقاءه بأن يواصل تعاونه معهم

---

(١) انظر: Marcus Aurelius: The Meditations, Translated Into English By George Long, Regnery - Gateway Inc., South Bend, U. S.A. 1956.

(٢) ١١- خالد فؤاد طحطح، نفس المرجع السابق، ص١٢.

كما كان يتعاون مع ديون كان رده عليهم بهذه الرسالة المطولة التي سرد لهم فيها قصة علاقته بديون وكيف كان يقدره ويحترم شغفه بالفلسفة وحبه لها، وفي ثنايا ذلك كشف عن جوانب وأحداث عديدة في حياته سواء قبل تعرفه على ديون أو بعد ذلك.

يقول د./ مكاوي في التمهيد لترجمة هذه الرسالة أنها «تعد ترجمة ذاتية سجل فيها الفيلسوف جانبا من حياته الشخصية وقدم لنا وثيقة لا غنى عنها لمعرفة اهتمامه بالشئون العامة وتطور موقفه من السياسة والحكم وكفاحه في سبيل تطبيق نظرياته المثالية على الواقع العملي في صقليه واعترافه بما أصابه من خيبة وإخفاق ودفاعه عن فلسفته دفاعاً مفعماً بالعاطفة الممزوجة بالألم والمرارة»[١].

ورغم أن من المعروف أن أفلاطون كتب على غرار هذه الرسالة اثنتا عشرة رسالة أخرى كانت قد نسبت إليه أو كان هو الذي كتبها فعلاً، فإن هذه الرسالة تعد ثابتة النسبة إليه من ناحية، كما أنها تعد الأطول بين سائر هذه الرسائل، بل هي «تعادل في طولها سائر تلك الرسائل الأخرى مجتمعه»[٢].

وقد أشار إليها شيشرون ووصفها في «المجادلات التوسكولانية» بأنها الرسالة الأشهر لأفلاطون، كما استفاد منها المؤرخ الشهير بلوتارخوس في الفصل الذي كتبه عن ديون صديق أفلاطون وتلميذه[٣].

ولعل أبرز ما يميز هذه الرسالة التي تعبر حقاً عن جانب مهم من السيرة الذاتية لأفلاطون أنها كتبت بحماس وبكل «مميزات الكتابة الحية التي تتدفق مع تيار الاعتراف الجارف ويسري فيها نبض الحكمة السمحة الطيبة»، كما خلت من الحشو والتصنع وبراعة الصقل والتصنع التي اتسمت بها الرسائل المنحولة التي اخترعها البلاغيون المتأخرون»[٤].

وما تمتاز به هذه الرسالة عن مثيلاتها من السير الذاتية أنها «ليست مجرد اعتراف شخصي أو ترجمة ذاتية أو سيرة حياة تلقي الضوء على طموح أفلاطون لتحقيق أفكاره وأحلامه والأخطار

(١) د./ عبدالغفار مكاوي: المنقذ - قراءة لقلب أفلاطون، نشرة دار الهلال بالقاهرة ١٩٨٧، ص١٠١.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه، ص١٠٢.
(٤) نفسه، ص١٠٣.

التي تعرض لها في فترة من أهم فترات حياته.. وإنما هي بجانب ذلك كله نافذة تطل منها على قلبه الذي وقف دائما وراء فكره ونتعرف من خلالها على معالم فلسفته المتأخرة التي فصلها في محاورات الشيخوخة»[١].

لقد وجه أفلاطون الرسالة إلى أقارب ديون وأصدقائه حينما كتبوا إليه يحثونه على التعاون معهم بالقول وبالفعل بحجة أن آراءهم وأهدافهم هي نفس آراء وأهداف ديون ومن ثم فلحبه الشديد لتلميذه وصديقه ديون يعدهم بالتعاون معهم[٢].

ثم يكشف لهم عن عقيدة ديون الأساسية التي اتفق معه فيها وكان حينئذ في أول زيارة قام بها لسيراقوصه (سيراقوزه) في حوالي الأربعين من عمره وكان ديون لا يزال شاباً، تلك العقيدة هي «أن أهل سيراقوزة يجب أن يعيشوا أحراراً في ظل أفضل حكومة ممكنه»[٣].

أما عن كيف نشأت هذه العقيدة لدى التلميذ بخصوص مدينته كما كانت لدى الأستاذ بخصوص أثينا وكل بلاد اليونان فقد حكى أفلاطون في بقية الرسالة قصته مع السياسة من بدايتها حيث يقول بعد ذلك كاشفاً عن أسرار وعوائق عديدة من حياته ربما تتشابك وتتشابه مع ما يمر به كل الشباب وخاصة ديون وأمثاله، يقول أفلاطون في مطلع هذه القصة «كنت لا أزال في ريعان الشباب عندما حدث لي ما يحدث عادة للكثيرين، فقد تطلعت إلى الإلقاء بنفسي في أحضان السياسة بمجرد بلوغي سن الرشد. وكانت هذه هي صورة الأحوال السياسية المحببة التي سادت مسقط رأسي؛ فقد كان الناس ناقمين على الدستور القائم وتمت ثورة نتج عنها تركيز السلطة في أيدي واحد وخمسين رجلاً، كلف منهم أحد عشر رجلاً بتولي الوظائف العليا في المدينة وعين عشرة آخرون في بيرايوس وقد عهد إلى هذين المجلسين بالإشراف على مراقبة الأسواق وغيرها من الشئون الإدارية الهامة أما الثلاثون الباقون فقد تولوا زمام السلطة المطلقة، وكان بعض هؤلاء يمتون إلى بصلة القرابة، وبعضهم الآخرين معارفي، ولهذا دعوني على الفور إلى التعاون معهم وكأن اشتغالي بالسياسة أمر مفروغ منه، ولم يكن من المستغرب من شاب مثلي أن يتوقع منهم أن يحكموا المدينة حكماً ينقلها من الظلم إلى العدل، ولهذا رحت

(١) نفسه.

(٢) أفلاطون: الرسالة السابعة، الترجمة العربية بكتاب د. عبدالغفار مكاوي السابق الإشارة إليه، (الفقرتان ٣٢٣ ٥٣ - ٣٢٤أ).

(٣) نفس المصدر، ٥٣٢٤.

أرقب ما يفعلونه بعناية واهتمام بالغين. وسرعان ما اكتشفت أن هؤلاء الرجال قد استطاعوا في أقصر وقت ممكن أن يجعلوا الحكم السابق عليهم يبدو في صورة عصر ذهبي[١].

وهذه إشارة من أفلاطون إلى أنه كان سيشارك في حكم ما سمي بحكومة «الطغان الثلاثين» في أثينا، لكنه صدم فيهم، وكذلك يحكي بعد ذلك عن صدمته من سلوك الحزب العائد من المنفى يقصد الحكم الديمقراطي، حيث جاءت الديمقراطية بعد حكومة الطغاة الثلاثين ولم تكن أفضل منهم، فقد استهلت حكمها بمحاكمة سقراط وإعدامه. وهنا يتوقف أفلاطون ليقول: «لما رأيت ذلك وتبنيت نوع الرجال العاملين في السياسة وأخذت في ملاحظة القوانين والأخلاق السائدة، اقتنعت في النهاية بصعوبة الاشتراك في الحكم»[٢].

ثم يكشف عن تحوله في هذه اللحظة التاريخية إلى الفلسفة كسبيل وحيد للإصلاح حينما يقول «وهكذا وجدتني مدفوعاً إلى الاعتراف بقيمة الفلسفة الحقة والتأكد من أنها وحدها التي تمكن الإنسان من معرفة العدل والصواب الذي تصلح به الدولة والحياة الخاصة وأن الجنس البشري لن يتخلص من البؤس حتى يصل الفلاسفة الحقيقيون الأصلاء إلى السلطة أو يصبح حكام المدن - بفضل معجزة إلهية - فلاسفة أصلاء»[٣].

وقد انتقل بعد ذلك إلى حكاية زيارته الأولى لإيطاليا وصقلية حيث يقول بعدما سبق، «أن تلك كانت أفكاره عند تلك الزيارة وأنه قد دهش لنمط الحياة التي يعيشونها حيث «شعر بنفور شديد من الحياة التي يعيشها قوم يوصفون هناك بأنهم سعداء وهي حياة تقوم على ألوان الملذات»[٤]. وحينئذ بدأ ينصح أهالي صقليه وديون وكان تحمس ديون لأفكار أفلاطون لدرجة أن قرر - كما يحكي أفلاطون عنه - أن يعيش حياته الباقية بطريقة مختلفة عن بقية الإيطاليين والصقليين، إذ كانت الفضيلة عنده أسمى من الملذات والمباهج الحسية[٥].

وأخذ أفلاطون يحكي بعد ذلك عن فترة إقامته في صقلية وعلاقته بديونيزيوس الأب وبديونيزيوس الابن الشاب الذي كان شغفه بالفلسفة وإلحاح ديون على أفلاطون في

---

(١) نفس المصدر، ٣٢٤ه- ٣٢٤د - ٣٤٢ه، ص١٢٥-١٢٦ من الترجمة العربية.

(٢) نفسه، ٣٢٥ ج - ٣٢٥د، ص١٢٧ من الترجمة العربية.

(٣) نفسه، ٣٢٦ أ-ب، ص١٢٨.

(٤) نفسه، ٣٢٦ ج، ص١٢٩.

(٥) نفسه، ٣٢٧ب، ص١٣٠-١٣١.

السفر إلى صقلية دافعين جعلاه يقدم على مخاطرة مساعدة ديون والوقوف بجانبه في محنة ألمت به هناك. وهنا نجده يقول عبارة ذات مغزى «وهكذا غادرت وطني بعد أن شجعتني هذه الأفكار على الإقدام على المخاطرة ولم تكن الدوافع التي حركتني إلى ذلك كما تصور بعض الناس بل كان الدافع الأساسي هو خوفي من الشعور بالخجل من نفس وخشيتي من أن أبدو في عيني مجرد رجل نظري عاجز عن إنجاز فعل واحد، وأن أقع في شبهة الخيانة لوفاء ديون وكرم ضيافته وذلك في وقت كان فيه يتعرض لخطر لا يقل عن الخطر الذي يمكن أن أتعرض له»[١].

إن أفلاطون هنا معنى بالفعل وليس فقط بالنظر؛ فها هو يقول أنه خشي أن يبدو في نظر نفسه عاجزاً عن الفعل حتى لو كان هذا الفعل يمكن أن يعرضه للمخاطر! وبالفعل يحكي لنا أفلاطون بعد ذلك عن ما تعرض له من مؤامرة من قبل ديونيزيوس الذي ربما تآمر بقتله ثم عاد لينفيه على ظهر سفينة معادية بعد أن تودد له وصور له أنه سيستمع إلى نصائحه!! ويستكمل بعد ذلك الحكاية إلى أن يصل إلى أن ديون قتل في حضور أصدقاء له من تلاميذ أفلاطون الاثينيين حيث استنكر أفلاطون هذا الفعل الخسيس! وهنا يتوقف أفلاطون ليؤكد لأصدقاء ديون وأقاربه الذين وجه إليهم رسالته نفس النصائح والآراء التي كثيرا ما قالها لديون وديونيزيوس حيث يقول لهم مرة أخرى: «إنه لا يجوز لصقلية ولا لغيرها من المدن أن تخضع للسلطة المطلقة، بل يجب - في رأيه على الأقل - أن تخضع لحكم القانون فالسلطة المطلقة مضرة بالحكام والمحكومين وهي مؤذية لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم لأن مثل هذه التجربة لابد أن تؤدي إلى الخراب والنفوس الصغيرة والطباع الدنيئة»[٢].

وينتقل أفلاطون بعد ذلك إلى الحديث عن زيارته الثانية لصقلية حيث كانت مدفوعه هذه المرة كما يقول هو بدوافع مثالية، وكذلك حكى عن زيارته الثالثة، وفي ثنايا ذلك يشرح جوانب عديدة من فلسفته وخاصة رؤيته لدرجات ومراحل المعرفة وعن ذكرياته مع ديون وديونيزيوس ثم يختتم هذه الرسالة السيرة بقوله «لقد قدمت النصيحة التي كان على أن أوجهها إليكم في أعقاب الحوادث التي وصفتها ولهذا أكتفى بما قلت. ولقد رويت قصة زيارتي الثانية لصقلية لأن الحوادث الغريبة غير المتوقعه التي ارتبطت بها فرضت على ذلك فإذا وجد أي

(١) نفسه، ٣٢٨د، ص١٣٣.

(٢) نفسه، ٣٣٤ج وما بعدها، ص١٤٤-١٤٥.

إنسان أن الوصف الذي قدمته يجعل هذه الحوادث أقرب إلى الفهم ويبرر الظروف التي تحدثت عنها تبريراً كافياً، فقد تحقق الغرض من هذا العرض على أكمل وجه»[١].

إذن لقد كان هدف أفلاطون من روايته لهذا الجانب من سيرته الذاتية في هذه الرسالة أن يجعل الغامض من الأحداث التي سمع عنها أصدقاء ديون وأقاربه أحداثا مفهومه وواضحة. ولا شك أن هذه الرسالة قد ألقت لدارسي فلسفة أفلاطون أضواء تنير أمامهم الطريق لفهم أبعاداً كثيرة من فلسفته السياسية إجمالاً وخاصة في محاورتي «الجمهورية» و«القوانين» كما تكشف عن سر تحول أفلاطون من إمكان المشاركة في قيادة أثينا وحكومتها إلى تأسيس مدرسته الفلسفية «الأكاديمية» مفضلاً الاقتصار على تعليم جيل جديد من ارستقراطي أثينا وبلاد اليونان مثال الدولة ومثال الحكم والعدالة.

خامساً: عظماء اليونان والرومان والسير الغيرية عند بلوتارخوس

يقدم بلوتارخوس في كتابه السير المتوازية نموذجاً فريداً للسير الغيرية في تاريخ كتابة السير؛ فهو أولا يعد واحداً من أوائل من قدموا هذا النوع من السير ومن ثم فهو يعد رائداً من روادها وهو ثانيا يقدم هذه السير بصورة مقارنة بين شخصيتين من الشخصيات المؤثرة في تاريخ أثينا وروما خاصة وبلاد اليونان على وجه العموم. وهذه المقارنة أو من باب أحرى الموازنة بين كل شخصيتين من هذه الشخصيات تتم بعد أن يقدم تفاصيل حياة كلاً منهما ويتضح من هذه الموازنة مدى التشابه بين إنجازاتهما وشخصياتهما وفيما بدا الخلاف بينهما. وهو ثالثاً يلخص لنا عبر هذه الموازنة بين هذه الشخصيات التاريخ اليوناني والروماني من وجهة نظره التي يغلب عليها السمة الأخلاقية الرواقية حيث كان يركز على أن يتشابه البطلين في إحدى الفضائل مثل الشجاعة أو الرزانة أو العدل أو الإيثار والشهامة أو الحكمة ..إلخ إن التأريخ كان يتخذ عنده دائما مرآة أخلاقية[٢].

وفي ضوء كل ذلك عده البعض «أمير كتاب السيرة» حيث كان أول من تنبه إلى الفرق بين كتابة السيرة وكتابة التاريخ حينما قال «نحن لا نكتب التاريخ وإنما سير حياة»[٣] ولقد

(١) نفسه، ٣٥٢أ، ص١٨١.

(٢) خالد فؤاد طحطح: نفس المرجع السابق، ص٢٣-٢٤.

(٣) نفسه، ص٢٤.

=

قال عنه مونتاني الفيلسوف الفرنسي الشهير «لو أن بلوتارخوس كتب لنا شيئاً عن نفسه لكان استمتاعنا بمؤلفاته أعظم و إدراكنا لمعانيها أوضح وأثرها في نفوسنا أقوى. ومن لا تشوقه معرفة حياة ذلك المصور القدير الذي أبرز لنا صور العظماء وأطلعنا على دخائل نفوسهم في أبدع تصوير وأدق بيان ليعرف ما انطوت عليه مؤلفاته من خبرة وتفكير[١]، لقد تمنى مونتاني أن يعلم عن بلوتارخوس ما أعلمنا هو عن حياة أولئك العظماء من التفصيلات المحكمة والحالات الخلقية الدقيقة التي تظهر آثار الطبيعة البشرية في التاريخ[٢].

ورغم أننا لا نعرف الكثير عن حياة بلوتارخوس ولا نعرف بالضبط تاريخ مولده، إلا أننا نعرف أنه كان سليل أسرة شريفة توارثت الميل إلى درس العلوم والآداب وأنه قد شهد في طفولته والده وجده ووالد جده، ونشأ تحت تأثير العادات والأخلاق القديمة في ظل هذه الأسرة الهادئة التي أعانته نوعاً ما على التمكن من ذلك الخلق الرفيع والعواطف الاجتماعية المحبوبة الظاهرة في مؤلفاته. وأنه كان كثير التفاخر بوالده لما كان عليه من فضل ووقار ومعرفة بالشئون الدينية والفلسفة والشعر. كما تعلم على يد أمونيوس حيث دخل مدرسته صغيرا وتعرف هناك بأحد أحفاد تمستوكل وتعلم على يديه العلوم الرياضية والفلسفة. ولا شك لدى مؤرخيه بأنه قد تلقى العلم والآداب على يد أساتذة مهرة. ويبدو ذلك من أن مواطنيه قد عهدوا إليه بالرغم من حداثة سنه القيام بمفاوضات مع المدن المجاورة. وهذا ما قاده إلى روما التي كانت حينذاك محط أنظار كل البارعين من صناع اليونان وفلاسفتها طلباً للشهرة والثروة[٣].

ويقال أن بلوتارخوس كان شديد العداء لتعاليم أبيقور شديد الإعجاب والاحترام لأفلاطون وتلميذه لاعتقادهما بخلود النفس والعدل الإلهي والخير. وقد كان كذلك شديد الاهتمام بشئون وطنه شديد الغيرة على ما بقى لمواطنيه من ظل الحرية في عهد السيادة الرومانية وكان يدعوهم إلى تسوية مشاكلهم أمام حكامهم الوطنيين دون أن يلجأوا إلى القنصل أو الحاكم الروماني. ولكي يكون قدوة صالحة لهم تولى بنفسه جميع شئون بلدته «شارونه» التي تركتها

= وراجع في ذلك أيضا: لطفي عيسى، كتاب السير - مقاربات لمدونات المناقب والتراجم والأخبار، دار المعرفة للنشر، تونس ٢٠٠٧م، ص١٢٠.

(١) نقلاً عن: فيلمان: بلوطرخوس، نقله إلى العربية ميخائيل بشارة داود في مقدمة الترجمة العربية لكتاب بلوتارخوس «العظماء - عظماء اليونان والرومان والموازنة بينهم»، سبق الإشارة إليه، ص٩.

(٢) نفسه.

(٣) فيلمان، نفس المرجع، ص١٠-١١.

روما للأهالي. ولقد مارس في بلدته كل المهام؛ إذ لم يكن حاكما يشغل أرقى مناصب المدينة لا غير، بل بقي زمنا طويلا يؤدي أعمالا حقيرة بكل ما لديه من همة ودقة وانشراح[١].

وتعتبر مؤلفات بلوتارخوس بسعتها واختلاف موضوعاتها أكبر موسوعة للحوادث والذكريات والأفكار التي وصلت إلينا عن تلك العصور الخالية، ورغم أنها جاءت من عصر فيه انحطاط فني وعلمي، إلا أنها جاءت عظيمة في أسلوبها وعباراتها يأتنس مطالعها ببلاغة اليونان القديمة ويتسمع بيانها في كل عصر من العصور. ولئن كانت مؤلفاته لا تنطوي على شيء مما تسمو إليه تعاليم الرواقيين ولا خيال أفلاطون وحماسته فإنها تملأ النفس شجاعة وإقداماً على العمل؛ إذ تستند على الوقائع يزينها تصوير متقن وتشبيه حي يخاطب القلب والعقل معاً. وإذا كانت مؤلفاته الفلسفية تتضمن خلاصة لجميع ضروب الحكمة القديمة، فإن مؤلفه في سير العظماء له ميزة عظيمة إذ يصور الطبيعة الإنسانية بسذاجة بلغت غاية الإبداع فترى في أسلوبه عامة شيئا من آثار ذلك البيان الخلاب المستعار من مدارس السوفسطائيين في بلاد اليونان وروما[٢].

لقد عالج بلوتارخوس في هذا الكتاب سيرا للعديد من عظماء اليونان والرومان مثل تيزيوس ورومولوس وليكورجوس ونوما، وصولون وبوبليكولا، وتيميستوكل وكامي، وبركليس... وغيرهم.

وقد انتهج منهجاً مدققا في عرض سيرهم وحاول قدر طاقته أن يتجنب ماروي عنهم أو علق بسير حياتهم من خرافات. وها هو يقول في ذلك في معرض حديثه عن تيزيوس مؤسس مدينة أثينا ومقارنته برومولوس مؤسس روما المجيدة، يقول أنه يرجو أن يوفق «إلى إخراج الخرافي من تلك الحياة وأميز جوانب الحقيقة وأن أفرغ عليها الصبغة التاريخية فإذا جاءت بعد ذلك غير موضع للتصديق أو خانتني الحقيقة فرجائي إلى القراء أن يشملوني بصفحهم وأن يقابلوا هذه الرواية العتيقة بتسامحهم»[٣].

وقد بدأ بعرض حياة تيزيوس الذي رجح أن يقع عهده بين عامي ١٢٤٩-١١٩٩ق.م. وقرر مقارنته برومولوس الذي يقع عهده بين عامي ٧٦٩-٧١٥ق.م. حيث وجد أنهما متشابهين في

(١) نفسه، ص١٣-١٤.

(٢) انظر: نفس المرجع السابق، ص ص١٤-١٦.

(٣) بلوتارخوس: العظماء، الترجمة العربية، ص٢٠.

غير موضع؛ إذ ولد كلاهما خفية من زوج سري وعرف بأنه من أبناء الآلهة، وعرف كلاهما بالشجاعة والقدرة، كما أنهما جمعاً بين القوة والحكمة، فضلاً عن أنهما أنشأ أعظم مدينتين في العالم روما واثينا، أنشأ الأولى روموليوس وأوجد الآخر أهالي الثانية، اختطف كل منهما النساء بلا فرق بينهما، وعرفا نكد العيش والاضطرابات المنزلية وانتهت بهما الحال إلى أن جلبا على نفسيهما بغض مواطنيهما على ما جاء في الأحاديث التي وان كانت خرافية فإنها لا تخلو من حقيقة»[١].

وهكذا أوضح لنا بلوتارخوس لماذا قرر الموازنة بينهما منذ البداية، ثم أخذ في سرد ما استطاع جمعه من سيرة تيزيوس «الذي يمتد نسبه من جهة والده إلى أريخته والأوتوختيين (الأهالي الأصليين) ومن جهة والدته إلى بيلوت الذي كان أقدر ملوك بيلوبونيز وأوسعهم شهرة لا من حيث ثروته فقط بل من حيث كثرة أولاده وقد زوجهم كثيراً من بنات أعيان البلاد وبث أبناءه في حكومة المدن. وقد أنشأ بتيوس جد تيزيوس لأمه مدينة ترازين واشتهر بالحكمة والعقل..»[٢]. ومضى على هذا يسرد علينا تفاصيل عديدة عن أسلاف تيزيوس وعن أمجادهم وأمجاده التي كان يحاول فيها محاكاة أمجاد هرقل حيث كان قلب تيزيوس قد أولع من زمن بعيد بالشهرة الزائعة التي نالها هرقل موضع إعجابه وكان يقبل بكليته على سماع كل حديث عنه ووصف لشخصه لاسيما أقوال من رأوه وسمعوا حديثه وشهدوا مواقعه.. وكان يحلم في نومه بحملات هرقل ويحس بالرغبة الشديدة في الاقتداء به والقيام بمثل أعماله»[٣]. ولقد وصف لنا بلوتارخوس الكثير من معاركه وصور مدى شجاعته في خوض هذه المعارك كما حقق الروايات المختلفة حول زواجه وأولاده وذكرنا بما ورد عنه في الأوذيسه التي جاء فيها أن»تيزيوس وبيريتوس من أبناء الآلهة العظماء»[٤]. كما دقق في بعض روايات هيرودوت عنه[٥]. وختم حديثه عنه بالحديث عن وفاته وعن تخليد الأثينيين له واحتفاؤهم بذكراه، حيث «كانوا يقيمون الضحايا تكريما له في الثامن من شهر بيانبسيون (أكتوبر - نوفمبر) وهو اليوم الذي عاد فيه من كريت مع رفاقه، ويحتفون به أيضاً في الثامن من كل شهر وقد يكون

(١) نفس المصدر، ص٢٠-٢١.
(٢) نفسه، ص٢١.
(٣) نفسه، ص٢٤.
(٤) نفسه، ص٣٢.
(٥) نفسه، ص٤٠.

ذلك لأنه عاد لأول مرة من تراز ين إلى أثينا في الثامن من شهر هيكاتونبيون (يوليه - أغسطس) كما قال ديودور البرياجي[١].

ثم عرض بعد ذلك لسيرة حياة رومولوس بادئا بعرض الروايات المختلفة التي وردت عن تسمية روما وإلى من نسبت، ويرجح رواية «الذين يدعون ولهم الحق أن رومولوس دعا المدينة باسمه»[٢]. ويعيب على هؤلاء أنهم غير متفقين فيما بينهم على أصل رومولوس ذاته؛ إذ يحسبه البعض ابن انياس واكسيتا بنت قورباس وأنه نقل إذ كان طفلاً مع أخيه روموس إلى إيطاليا وإن نهر التير طغى فحطم جميع السفن إلا سفينة الطفلين التي دفعها بلطف إلى شاطئ ممهد ونجت على غير المنتظر ودعيا المكان روما. ويقول آخرون أن روما بنت واكسيتا هذه تزوجت لاتينوس بن تلماك فأولدها رومولوس ويذهب البعض إلى أن رومولوس هو ثمرة اتصال سري بين أميليا بنت انياس ولافنيا بالإله مارس»[٣]. وعدد بلوتارخوس العديد من الروايات عن مولد رومولوس وعن أصله الإلهي ونقد ما رفضه منها ثم روى لنا قصة تأسيسه لمدينة روما والخلاف الذي استعر بين الأخوين رومولوس وروموس حول المكان الذي تأسست عليه المدينة، ذلك الخلاف الذي جعل البعض يتهم رومولوس بقتل أخيه، ثم اشتغاله بعد دفنه ببنائها[٤]. ويقال أنه أنشأها في الحادي عشر من مايو ولا جدال في ذلك ولا يزال الرومانيون - حسب رواية بلوتارخوس - يقيمون هذا العيد السنوي ويدعونه عيد ميلاد وطنهم»[٥].

وقد روى لنا بلوتارخوس ما أكده الرواة حول رغبة رومولوس في شن الحروب لأنه فيما يقال قد «أفضى إليه الوحي أن القدر يخبئ لروما عظمة خطيرة وكلما غذتها الحروب ازدادت عظمة»[٦]. وقد تعددت بالتالي معارك رومولوس وخاصة مع السابيين، وقد أصيب رومولوس في إحدى هذه المعارك بجرح في رأسه كاد يقتله[٧]. وقد تعاظم شأن رومولوس من جراء انتصاراته في ما خاضه من معارك بعد ذلك لدرجة أن الكثيرين من جيرانه خشوا من

(١) نفسه، ص٤٤-٤٥.
(٢) نفس المصدر، ص٤٧.
(٣) نفسه، ص٤٧.
(٤) نفسه، ص٥٤-٥٥.
(٥) نفسه، ص٥٦.
(٦) نفسه، ص٥٨.
(٧) نفسه، ص٦٤.

سطوته وسلطانه فقنعوا معه بالسلام، إلا أن الأقوياء منهم وقد تولاهم الخوف منه عمدوا إلى تعطيل تقدمه ومعاقبته وكان منهم «الفييون» الذين بدأوه بالعداوة حيث كانوا أصحاب أراضي شاسعة ومدينة كبيرة وقسموا جيشهم إلى فرقتين، انتصرت الأولى على الرومانيين في مدينة «فيدان»، بينما التي ذهبت لملاقاة رومولوس «هزمت شر هزيمة وفقدت أكثر من ثمانية آلاف من رجالها ثم وقعت معركة أخرى بالقرب من «فيدان» شهد الجميع أنها كانت من عمل رومولوس الذي بذل فيها كثيرا من المهارة والبسالة وأظهر من القوة فوق طوق الإنسان ولكن رواية القائلين أن رومولوس قتل بيده نصف الأربعة عشر ألف جندي الذين بقوا في حومة الوغي خرافة لا تصدق»[١]. وهكذا يروي بلوتارخوس من أخبار معارك رومولوس ما يمكن تصديقه وينتقد مالا يمكن تصديقه وخاصة في تلك الرواية الأخيرة التي قيل أنه قتل بيده فيها سبعة آلاف جندي من الأعداء لكنها رواية تؤكد أكثر مما تنفي مدى شجاعة وبسالة رومولوس في الحروب، تلك الشجاعة التي أهلته للسيادة والشرف بين مواطنيه لدرجة أنه بدأ يتجبر عليهم إذ امتلأ ثقة بنفسه واستخف بالجمهور وطغى واستاء الناس من بذخه في الملبس إذ كان يلبس الرداء الأرجواني ومن دونه الفروة، وكان يعقد الجلسات وهو جالس على مقعد منقلب يحيط به شبان يدعون الراكضون لسرعتهم في تنفيذ أوامره، وكانت تمشي أمامه طائفة من هؤلاء يحملون عصيا يبعدون بها الناس عن طريقه يحملون أطواقاً يغلون فيها من يأمرون بالقبض عليه»[٢].

ولعل ذلك التجبر كان من أسباب المصير الغامض الذي لاقاه في نهاية حياته، وقد حاول بلوتارخوس تحقيق الروايات العديدة حول اختفائه وانتهى من ذلك إلى القول بأنه «مهما يكن من أمر هذه الروايات فإن رومولوس قد اختفى من بين الناس وهو في الرابعة والخمسين من عمره وفي السنة الثامنة والثلاثين من حكمه»[٣].

وبعد أن انتهى بلوتارخوس من رواية مسيرة حياة هذين الرجلين العظيمين، عاد مرة أخرى إلى الموازنة بينهما قائلا: «هذا ما استطعت جمعه حقيقاً بأن يذكر عن تيزيوس ورومولوس ثم أكد على كيف اتصفا معا بالشجاعة والإقدام وعظمة النفس والإخلاص للخير العام ورغبتهما

(١) نفسه، ص٧١-٧٢.
(٢) نفسه، ص٧٢.
(٣) نفسه، ص٧٧.

الشديدة في المجد والفضيلة. لقد خلق تيزيوس ورومولوس ليحكما وكلاهما لم يعرف الحرص على طبيعة الملك؛ امتهنا الملكية أحدهما عن طريق الديمقراطية والآخر عن طريق الاستبداد، سقط كلاهما في غلطة واحدة عن طريقين مختلفين. إن أول واجب على من يتولى الحكم هو صيانة المملكة، يجب عليه أن يجتنب مالا يجب ويأخذ بما يجب وإذا زاد في لينه أو شدته لم يعد ملكاً ولا رئيس شعب بل يكون مملقاً أو ظالما يجلب على نفسه البغض أو الاحتقار. ينشأ أحد هذين العيبين عن الدعة الإنسانية وينشأ الآخر عن الأنانية والقسوة»[1].

وعلى هذا النحو يمضي بلوتارخوس في المقارنة بين العظيمين تيزيوس ورومولوس موازنا بين أخلاقهما وشجاعتهما وإنجازاتهما موضحا نقاط الاتفاق ومواطن الاختلاف.

وعلى نفس المنوال ينسج بلوتارخوس كتابة سير كل الرجال العظماء الذين اختارهم وتناولهم في كتابه محاولا قدر طاقته الإنسانية أن يتحقق من كل ما روى عنهم متمثلاً ما قاله منذ بداية مؤلفة نهج الموضوعية والدقة في تحقيق الرواية التاريخية حول حياة من روى سير حياتهم ملتمساً من قارئه الصفح عن أي هفوات أو أخطاء ربما يكون قد وقع فيها وخانته فيها الحقيقة حسب قوله.

(١) نفسه، ص٧٨-٧٩.